

لا مخرج إلا بالتجديد: التجديد في الإسلام قضية وجود

محمد جابر الأنصاري*

الحياة

2006/11/26

تعرض اتجاه التجديد الإسلامي في العصر الحديث إلى عوائق تاريخية قاسية كادت تخنقه وتبقيه حبيس القيود وما يزال كذلك في زمن يسود فيه الاتجاه النقيض المعادي للتجديد في الإسلام بشدة في ظل هجمة خارجية شرسة على العالم الإسلامي تغذي في النهاية عناصر الجمود فيه وتقوي رواسب الماضي ولا تترك لأكثر المسلمين - في رد فعل غريزي دفاعاً عن النفس - إلا التمسك بموروثهم التاريخي والاجتماعي المنسوب للإسلام وهو في حقيقته تعبير عن الأزمة الداخلية والخارجية الطاحنة التي يعيشونها وتزيد من انعزالهم وتخلفهم عن حركة العالم، بعد أن تجمدت الحضارة الإسلامية، وهو الأخطر، في أهم جوانبها الحيوية - اجتهاداً وعمراً وانفتاحاً - في العصور المتأخرة التي علينا أن نعترف بأنها كانت تراجعاً ذاتياً سبق «مؤامرات» القوى الخارجية. وعلينا الإقرار والاعتراف بأن ذلك هو ما أدى في الواقع إلى تراجع المسلمين أمام القوى المعادية من دون أن نتذرع بأية مبررات أخرى.

وقبل بدء الهجمة الغربية الاستعمارية على مراكز الحضارة العربية والإسلامي، استطاع مفكرو الإسلام الاعتراف بتفوق أهل الحضارة الحديثة في القوة على غيرهم من الأمم، فكتب رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي وسواهما في الدعوة إلى الانفتاح عليها حيث قرر الطهطاوي ببساطة: «إن كمال العلوم والفنون والصناعات ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع. ولعمر الله إنني مددت إقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الإسلام منه... فنسأل الله... أن يوظف من نوم الغفلة سائر أمة الإسلام...» (من مقدمة كتابه تلخيص الإبريز).

إلا أنه مع توالي الغزوات الأوروبية لديار العرب والمسلمين واشتداد حصارها مالت لهجة مفكري الإسلام إلى التشدد والتصلب بدءاً من جمال الدين الذي افترق عن رفيقه الأستاذ الإمام محمد عبده إلى أولوية النضال السياسي مغفلاً بذلك الإصلاح العقلي والتربوي واللغوي الذي كان محمد عبده يراه ضرورياً لنهضة الأمة بما في ذلك نهوضها السياسي الذي لا بد أن يؤسس على نهوض تربوي وثقافي وتحضري.

وما زالت هذه الإشكالية المصيرية قائمة وتواجه العرب والمسلمين في مختلف ديارهم في ظل اشتداد الهجمة السياسية العسكرية المعادية، التي تحتم الرد، لكن بقوة النهوض الحضاري الذي إن لم يتحقق فلا ضمانة للنصر، وسنبقى معرضين للمزيد من التراجعات والهزائم. فعلى الاتفاق إذن أن المعركتين متلازمتان: معركة السياسة ومعركة الحضارة، ولا بد أن نعرف كيف نخوضهما معاً في مشروع متكامل واحد أحس فطرياً بضرورته محمد علي بمصر، ثم تلتها محاولات أخرى، رغم قصوره في بعض جوانبه، وإن كان ريادياً وغير مسبوق في وقته، وحقق لمصر العربية نهوضاً حضارياً في تلك الحقبة المظلمة كانت تشيد به صحيفة «العروة الوثقى» التي أصدرها عبده الأفغاني من منفاه بباريس رغم رفض الشيخ محمد عبده لاستبداد محمد علي.

* * *

يتضح أن أية دراسة موضوعية محايدة للحركة الإسلامية الأولى، وفي ضوء نصوص قطعية الدلالة من القرآن الكريم والسنة النبوية، تثبت أن الإسلام دين حضري حضاري وأنه نزل لتحضير العرب وتقليص أثر الحياة الرعوية على نظامهم القيمي والاجتماعي والسياسي. وكان فقه الحاضرة / البادية فقهاً قوي الحضور في خطاب الدعوة الإسلامية - قرآناً وسنةً ومسلماً نبوياً وصحابياً - وقد تحول هذا التوجه في الإسلام إلى تفاعل واثق في ما بعد مع الحضارات الأجنبية الأخرى و «علوم الأقدمين» بعد أن استطاعت القيادات الحضرية منذ عهد الخلفاء الراشدين عبور الحواجز الصحراوية للجزيرة العربية والسيطرة على قواها الرعوية وضبطها وتنظيمها والانتشار في الفضاءات الحضارية الهلينية (الإغريقية) والفارسية والهندية والصينية... الخ. وأقام الإسلام للمرة الأولى في التاريخ - كما أقر المؤرخون - حضارة جامعة قاربت بين المعطيات الإغريقية - الرومانية في أقصى الغرب والعناصر الهندية الصينية في أقصى الشرق - فقد وضع الإسلام بما فيه من عناصر الانفتاح والقوة «معطيات» الحضارات القديمة في إطاره المرن من دون عقد ومضى بها، في ظل عقلانيته القرآنية الأصيلة، إلى أن وصل بها إلى تخوم الجامعات الغربية الناشئة في أوروبا عبر الأندلس ولم يخضع للاتجاهات الجامدة في الفكر والاجتهاد إلا عندما اشتدت عليه وطأة الهجمات الإفرنجية والمغولية من الخارج، وانبعثت الموجات الرعوية المتبدية من الداخل التي كانت تلجأ إليها المجتمعات الإسلامية المتحضرة لحمايتها من الأعداء الخارجيين فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، حيث اضطرت تلك المجتمعات المتحضرة - دفاعاً عن النفس - إلى التكيف مع سادتها الرعويين المشاركين لها في ظاهر العقيدة لا في جوهر الحضارة من عرب وأتراك وبربر. وكان الخيار القاسي الذي واجهه الأمير المتحضر المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية بين أن يصبح

«راعي خنازير» لدى الإفرنج أو «راعي جمال» لدى قومه المسلمين في أفريقيا تعبيراً عن القدر الفاجع لمشروعات التحضر العربي...

بذلك انطمس ذلك الفقه الرائع الذي كان الدافع الأكبر للتحضر العربي - الإسلامي فقه الحضارة / البداوة وتم إغفال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الإشكال الحيوي في النسيج الاجتماعي للعالم العربي والإسلامي، وإلا لما تجرأ خليفة كالمعتصم على جلب أخواله بدو الترك لحكم حاضرة الخلافة بغداد، فلما تيقن من رفض الحاضرة وأهلها الحضر لهؤلاء العسكر الرعوي بنى لهم «سامراء»... معسكراً يرمز لسطوة العسكر على الحياة المدنية العربية منذ ذلك التاريخ. وكما سجل الطبري مؤرخ العصر فقد كان هؤلاء: «عُجماً جفاة يركبون الدواب، فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي»، حتى تفاقم الوضع واشتدت شكوى أهاليها منهم إلى الخليفة.

ولم يقتصر تأثير هؤلاء البدو الرعاة على زعزعة الحياة الحضرية التي بذل الإسلام أقصى جهده لإرساء أسسها منذ فجر الدعوة على يد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، بل «استولوا على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان (الخليفة) في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعه، وإن شاءوا قتلوه» - كما سجل المؤرخ ابن الطقطقي.

وعلى رغم أن الجاحظ قد كتب رسالته في أولئك الرعاة الآسيويين إبان سطوتهم، فإنه لم يجد مناصاً من إقرار حقيقة كونهم: «أعراب العجم... لم تشغلهم الصناعات والتجارات... ولا غرس ولا بنیان ولم يكن همهم غير الغزو والغارة... وطلب الغنائم وتدويخ البلدان» - مبرزاً افتقارهم إلى أي منشط حضاري.

وفي رؤية نافذة لشكلية إسلامهم والمظاهر القشورية التي تلبسوها منه يقول شيخ النهضة الحديثة الأستاذ الإمام محمد عبده: «استبدوا بالسلطان... وصارت الدولة في قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الإسلام، والقلب الذي هدبه الدين، بل جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه». (الإسلام بين العلم والمدنية، 1959، ص 166).

ولم تكن مصادفة أن عمر بن الخطاب «لم يكن يولي أحداً من أهل الوبر على أهل المدر»، أي أن الخليفة الثاني لم يكن يولي بدواً على حضر لضعف قابليتهم السياسية. وفي السنة النبوية وفقه فقهاء الصدر الأول وفي مقدمتهم الإمام مالك بن أنس إمام مدينة الرسول من التحفظ حيال الخضوع

لأعراف البداوة ما يتطلب التأمل العميق وإن لم يكن هنا موضعه، وقد فصلناه في دراسات خصصت لذلك.